الأسواق العامة حول مكة المكرمة

ودورها

فى تشكيل الملامح الأدبية لمكة المكرمة

أولا :

إن المكانة العلمية التى يحوزها إنسان أو تستأثر بها جماعة أو يرتبط ذكرها ببقعة ما من بقاع الأرض ، لابد لها من ظروف شتى هيأت لها وجودها وتبلورها ، ثم ظهورها على رأس إنسان أو جماعة أو بقعة . وكما تستمد عين الماء ماءها من أوردة الأرض المنسوبة فى باطنها عبر أزمنة طوال ، وكما تدفع هذه العين ماءها قنوات وجداولاً ، ولكى تستمر رحلة الأخذ والعطاء التى يكمن بين طرفيها الوجود الفاعل للإنسان أو للجماعة أو للبقعة فإننا ننظر إلى مكة بوصفها خلاصة لإرادة إلهية ، ومحصلة لجهد بشرى متعاقب عبر الزمان جعل منها هذه البقعة الشريفة المشرفة التى استمدت مكانتها من إرادة الله عز وجل الذى اختارها وتعهدها ، ومن تلك المحصلة البشرية المتعاقبة من أجلها ، ومن ثم أخذت مكة تقوم بدورها فى العطاء المتواصل عبر الزمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وفى ذلك تلتقى مكة مع عين زمزم تلك العين التى تمثل هذه الحقيقة المكية فوجود هذه العين ، وشرفها إنما هما راجعان إلى إرادة الله التى أجراها على ضربة جبريل عليه السلام بعقبه أو بجناحيه كما ورد فى الصحيح( ) ، كما أن هذا الوجود مدين إلى اهتمام العرب بها وحفرها مرة بعد مرة إلى أن أصبحت عيناً قائمة للشاربين ، وأخذت دورها فى العطاء المتدفق والمتجدد فى آن ، حتى أن كل مياه الأرض قد تأتى عليها ساعة فتذهب وتجف إلا زمزم التى تقف علامة وشاهداً على التاريخ بعطائها .

ونحن معنيون فى هذه الورقة بإلقاء ضوء كاشفٍ بقدر ما يسمح به المقام على جانب من الجوانب التى استمدت منها مكة المكرمة تاريخها ومنزلتها لتواصل دورها التاريخى المقدس الذى أريد لها .

وإذا كانت هذه القرية القاحلة قد قُدر لها أن تكون نقطة تتقاطع عندها الخطوط التجارية العربية قبل الإسلام ، فقد قدر لها أيضاً أن تكون مركزاً للجاذبية العاطفية لدى سكان محيطها المعمور سواء أضاقت دائرة الجزيرة العربية أم اتسعت لتشمل الأرض كلها فتظل بوصلة كل فؤاد متجهة شطر بيتها ، وما أبلغ التعبير القرآنى ﴿ ▫•♐♐♉⇧➔◻♑◻▫♑◻▫★♑⑨◻◻☪ ♒♓♉♐♐♐◻☪◻♐◻♘ ☜•♐◻♐❑♐➑✓ ①♐♐•➌♐♐♐♐♐ ﴾( ) .

( ) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : (فلما أشرفت – يقصد هاجر – على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه – تريد نفسها – ثم تسمعت أيضاً فقالت : أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ...) الحديث – صحيح البخارى ، جـ٢ ، حاشية السندى ، ص ٢٣٥ .

( ) إبراهيم ، الآية ٣٧ .

ولقد قدر لها ثالثاً أن تكون مهرجاناً أدبياً علمياً ، ورحماً للغة العربية ، يُرعى أصولها ويدعم نموها ، وبوتقة تنصهر عندها لهجات شتى من لغات اللسان العربى ، وهذه الأخيرة هى التى تحاول الوقوف بإزائها وإخضاعها لمرآة مكبرة حتى نقف أو نقترب من أحد الروافد الذى ظل حقبة من الزمان يدعم مكة وينزلها منزلتها العلمية الرائدة حتى كانت – ودون مبالغة – مركزاً إشعاعياً لثقافة العربية قرآناً وشعراً ونثراً تقدمه فى رحلة العطاء لمن حولها من بقاع الأرض قاطبة سهلاً ميسوراً ناضجاً مستوياً .

وبحثنا الذى نعنى به سيولى اهتمامه فى الأساس تلقاء أحد الروافد التى سبق أن أشرنا أنها جعلت لمكة هذه المكانة العلمية والأدبية خاصة بعدما شهد التاريخ حدثاً مهماً وحداً فاصلاً فى صيرورته الزمنية ، وعلامة فارقة بل منعطفاً حاداً فى تاريخ البشرية الفكرى بعامة وأعنى به حدث بزوغ نجم الدعوى الإسلامية فى سماء رانت عليها ظلمة الجهل ردحاً طويلاً من الزمن .

فإذا كانت هناك مجموعة من الأسباب عملت جميعها على دفع حركة الفكر والأدب إلى الأمام إبان ظهور الإسلام ، فإنا نركز فى السطور التالية على أحدها متمثلاً فى المهرجانات الأدبية والمحافل الثقافية التى كانت سرادقها تشاد بمكة متمثلة فى أسواق جُعلت أول ما جُعلت للتجارة غير أن الله قد قدَّر لها أن تكون موضعاً للإحتكاك الثقافى بين سكان الجزيرة العربية شمالها وجنوبها ، وبين شتى قبائلها المنتشرة فى نجد والحجاز ، بالمعنى الذى يقصده المعاصرون من وراء مصطلحى " المثافغة والتثاقف " ، أجل فقد كانت هذه الأسواق المكية مسرحاً للتغلغل الأدبى فى شتى منطلقاته القبلية والفكرية وكذا الأسلوبية .

والمتأمل فيما شغلته مكة ببيتها الحرام وأسواقها المجاورة فضلاً عن كونها ملتقى سكك القبائل من الجنوب إلى الشمال يتأكد له أنه ثمة إرادة إلهية ترتب وتهيئ لمكة دوراً ما محورياً تحمل فيه تبعة الزيادة الفكرية والأدبية بعدما ظهر أهميتها الاقتصادية التى أتتها من القوافل التى تزورها للحج والتجارة محملة بألوان شتى من خيرات بلدان هذه القوافل شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً ، الأمر الذى يكشفه قول الله عز وجل حينما امتن على أهل مكة قائلاً : ﴿ ﴾ [1] وقولـه ﴿ ﴾

---

[1] القصص الآية ٥٧ .

إضافة إلى كل ما سبق هناك إرادة إلهية أخرى فى اختيار عناصر معينة متمثلة فى قبيلة قريش التى سكنت بطاح مكة . ويُكتب لها الغلبة اللغوية المستمدة من سلطانها على البيت الحرام .

وعلى أية حال نحاول صياغة سؤال علمى ثم نتبع ذلك محاولة أخرى فى الإجابة عنه فالسؤال الذى يطرح نفسه إذن كيف تأتَّى للأسواق المكية أن تضيف إلى مكانة مكة العلمية والأدبية ؟ وما مظاهر هذه الإضافة وما قيمتها بالنسبة للمسلمين والإسلام بعامة ؟

وللإجابة عن هذا السؤال يجب تتبع الأخبار التاريخية ، والاقتراب أكثر من تلك البيئة ، والإحساس بظرفها الاجتماعى ، ومعايشة ملابساتها الاقتصادية والاجتماعية ، للوقوف على صورة أكثر دقة وقرباً من الواقع التاريخى والاقتصادى الذى لازم نشاة هذه الأسواق ، وحايث تطورها عبر الزمن ، وشهد على ما اضطلعت به من أدوار رفدت النهر المكى وغذَّت شرايين الحياة الأدبية والثقافية ، لتضمن الحيوية والتجدد ، لمواصلة رحلة العطاء .

وسبيلنا فى رسم صورة واضحة الأبعاد والمعالم لتلكم المواسم الخصبة أن نتعرف على ملامحها بتقليب صفحات التاريخ من جهة ، ثم إكمال ما يبدو من نقص فيها بالفزع إلى الشعر الذى نَظَمَه بعض شعراء الجاهلية والإسلام من المخضرمين خاصة وهم أولئك الشعراء الذين كانت لهم بهذه الأسواق صلات فاعلة وتجارب تشهد بغشيائهم إياها ، كما تعكس من جانب آخر ما بلغته هذه الأسواق من شأو فى أنفس مَنْ كانوا يحجون إليها ، وما كانت هذه السبيل الثانية إلا لقناعتنا التامة بأن الشعر العربى ديوان العرب وسجل حيواتهم وأنه ذو قيمة وثائقية غنية ، تسد بعض الثغرات التاريخية وتسهم فى تقريب الصورة وتعمل على إيضاحها ، لأنه يصور بدقة الحياة العربية لا فى بعدها التاريخى الموضوعى فحسب ، بل فى نقله ما اكتنف هذه الحياة وحوادثها من شعور بالحب أو بالإزدراء وبالإجلال أو بالانتفاض . وربما لا تنتقص هذه النظرة الوثائقية للشعر من كونه فناً لغوياً خالصاً يمتع قارءه بما يدفعه إلى وجدانه من موجات جمالية تشبع الوجدان كما تشبع العقل ، فلا يزال الشعر العربى منذ أقدم عصوره يقنع العقل ويرضى الفكر ، كما يُمتِّع الحس ويدغدغ العواطف الإنسانية . وخلوصاً من التجريد إلى التحديد نتجه صوب الموضوع لنؤكد بعض الحقائق التاريخية .

( ) العنكبوت الآية٦٧ . [1]

ثانياً :

وأول هذه الحقائق التى يجب أن نجملها قبل أن نتجه صوب تفصيلها ، هى " حقيقة الأسواق " التى كانت قبل الإسلام ، إذ كان ظهور هذه الأسواق حتمياً ، عَكس حاجة الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً لايعيش وحده وإنما هو جزءٌ لا يتجزأ من منظومة اجتماعية فى القبيلة أو العشيرة وفى منظومة أكبر هى المنظومة الإنسانية . والأسواق عموماً تعد ظاهرة حضارية تعكس ما وصلت إليه المجتمعات الإنسانية من تمدن فى السلوك وتحول يفرضه عليها قانون التطور الإنسانى الذى يحيل المجتمعات البدائية إلى أخرى زراعية وصناعية وتجارية وكلما تطور الإنسان ازدادت حاجاته وتبعاً لذلك ازدادت حاجته إلى السوق بوصفها المعرض الذى ينتهى عنده المحصلة النهائية للإبداع فى شتى المجالات ، ولقد كان للبيئة البدوية فى شبه الجزيرة العربية أثر عظيم فى اهتمام العرب فى البادية وفى الحضر بالأسواق ، فهى إن ملكت بضاعة افتقدت أخرى فتطلبها فى الأسواق ولذا تعدد أسواقهم من حيث العدد وتمايزت من حيث الأهمية التى تعود إما لموضعها أو لزمن انعقادها ، كما تمايزت من جانب آخر حيث حجم السوق ونوع البضاعة الغالبة عليها .

ولقد اختلف بعض العلماء فى حصر عدد الأسواق التى كان يعرضها العرب ، وقد لخص أحدهم( ) هذه الآراء المختلفة ، فبينما نرى القلقشندى فى صبح الأعشى يعدها ثمانيا نرى اليعقوبى فى تاريخه ، والبغدادى فى خزانته يعدانها عشرا ، ثم يختلفان عليها فيذكر كل منهما بعضاً ويترك بعضاً ، ونراها عند المرزوقى فى كتابه الأزمنة والأمكنة تبلغ سبع عشرة سوقاً ، ثم يأتى الألوسى فى كتابه بلوغ الأرب فيذكر منها أربع عشرة .

وعلى أية حال فإن هناك تقسيماً آخر لمجموع هذه الأسواق يحسن أن نضعه نصب أعيننا قبل التفصيل فى أسواق مكة على وجه الخصوص ، فقد قُسمت هذه الأسواق تبعاً لمن تخضع له ويبسط عليها نفوذه وهى على النحو التالى :

أ- أسواق( ) خاضعة لنفوذ أجنبى ، تدار بنظم[٢] خاصة وتتضاءل فيها الصبغة العربية ، كما نرى فى " الحيرة " و " هجر " و " البحرين " و " عمان " وغيرها من المواطن التى تدين عليها السيطرة الفارسية . وكما نرى فى " بصرى " و " أذرعات " و " غزة " و " أيلة " وغيرها مما يدار بالإدارة الرومانية . والذى ينظر فى هذه الأسواق عمال عرب يعينهم

( ) أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ، ت. سعيد الأفغانى ، ص ١٨٠ ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م .

( ) أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ، ص ١٨١ ، ١٨٢ . ت. الأفغانى .

ولاة الفرس وولاة الرومان ، وهؤلاء العمال الذين يعولون السوق هم الذين إليهم أعشار أهلها .

ب- أسواق أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة فصارت مع الزمن تمثلهم أصدق تمثيل فى عاداتهم فى البيع والشراء والخصام والدين والزواج والحقوق ، ولا يشرف عليها إلا سراة أهلها وهى مرآة العرب فى الجاهلية وبها نستطيع أن نعرف كل ما كان عليه العرب تقريباً فى معاملتهم وعلائقهم بعضهم ببعض . وهى فى أماكن لا أثر للنفوذ الأجنبى عليها وتمثل لهذا القسم بعكاظ . ولا عاشر فى هذا القسم والعرب يتبايعون فيه ببيوع خاصة بهم .

ج- أسواق ذات صبغة مختلطة نظراً لموقعها الجغرافى وهى التى تكون على البحر كـ"عدن" و "صحار" و "دبى" وفى هذه يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس ويضؤل فيها الطابع القومى بمقدار ما يقوى شأنها التجارى .

ثالثاً :

أما مكة فقد شهدت فى جاهليتها وحتى بعد ظهور الإسلام ثلاث أسواق كبرى( )، احتفى بها جميعاً العرب ومَنْ جاورهم بأطراف الحيرة والغساسنة شمالاً واليمن جنوباً ، فأولاها سوق عكاظ ، وثانيها سوق مجنة ، وثالثها سوق ذى المجاز وهى أسواق قُدر لها أن توجد على التعاقب الزمنى وليس على التزامن المكانى ، بمعنى أنها لم تكن معقودة ومتعاصرة فى زمن واحد بمواضع شتى ، بل كانت محكومة بالزمن فأولاها إذا أقيمت ثم انفضت جاء دور الثانية عقبها فإذا انفضت وانتهت وقت انعقادها أقيمت الثالثة عقبها فى أزمنة مخصوصة متعاقبة ومواضع شتى حول مكة . واللافت فى أصل المرجعية التى جعلت من أزمنة انعقاد هذه الأسواق محكومة بشهور مخصوصة من العام ، يتأكد لديه أنها مرجعية تاريخية دينية تعود إلى أصل الديانة الحنيفية ، التى وضعها إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام . وإلى بيت الله الحرام بمكة الذى رفعا قواعده بأمر من الله فى اختيار مكانة من الأرض ووقت الحج إليه حينما انطلق الأمر الإلهى واضحاً وعاماً ﴿ ❼■✍♦↖◆❐ ❻ ❼❐✍♦③ ❷❑➔✍▫♦③

( ) وذكر الإمام الحافظ الفاسى أن هناك سوقاً مكية رابعة لأزد تسمى سوق " حباشة " على بعد ست ليال من مكة ناحية اليمن ، وكانت تقام ثلاثة أيام من شهر المحرم ، لذا فهى ليست ضمن أسواق موسم الحج ، وكانت آخر ما حُرب من الأسواق عام ١٩٧ عندما جرد والى مكة إليها جيشاً فخر بها لأن أزداً قتلت وايه عليها ، راجع شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لأبى الطيب تقى الدين محمد بن أحمد بن على الفاسى المكى المالكى ، تحقيق وتعليق لجنة من كبار العلماء .

✍♎&♦◻ ⇫♏✍↗📫 ♊&👌 ☙◻✓&✍◻🕯♦③ ☎❷&👌👓✿➭
⇖♦☺&⑩📪☎ ❁ [١] .

ورغم ما جرى على ديانة إبراهيم من تقلص ، وتبديل أجيال تلو أجيال لقواعدها المتمثلة أساساً فى عقيدة الوحدانية إذ ظهرت الوثنية وجلبت الأصنام إلى مكة ووضعت بالكعبة حتى بلغت ثلاثمائة وستين صنماً قبيل عهد الإسلام ، أقول رغم ما حدث من تغيير من عهد إسماعيل إلى عهد الوثنية الأخيرة فإنه قد بقى الحج إلى بيت الله الحرام عقيدة يحرص عليها الناس ويعدّون له عُدتهم ويتحملون وعثاء السفر إليه ضاربين أكباد الإبل عبر المفارز والجبال والشعاب حتى يهبطوا وادى مكة فى أشهر الحج وهم راضون فرحون ببلوغهم مرادهم بقطع النظر عن شركهم وأنهم يتجهون إلى أصنام لهم قدسوها ظانين أنها تقربهم إلى الله زلفى ، المهم أن العرب وإن دخلتهم الوثنية فانحرفت بعقيدتهم من التوحيد إلى الشرك إلا أنهم كانوا حريصين على موسم الحج كل عام إلى هذه البقعة وهذا ما يهمنا فى هذه النقطة . إذ أنه لولا حجهم فى جاهليتهم إلى بيت الله بمكة ماكانت هذه الأسواق لتوجد وتكون فى الأصل ، ومما أكد فى نفوس عرب الجزيرة جميعاً وغيرهم فى الشمال قدسية بيت الله ، وزكى إجلالهم له حادثٌ يعد علامة لا تمحى فى ذاكرتهم ، إنه حادث الفيل وجيش أبرهة الجرار الذى جاء لهدمه فتكفل ربُّ البيت بدحره والتنكيل بجيشه وإظهار قدرته فى أعدائه تأكيداً لجميع خلقه بحرمة بيته ، تلك الحرمة التى امتدت لتشمل مكة كلها بأسواقها الثلاث ، التى سنقف الآن عندها ونستعيد جوها التاريخى .

أ– عُكَاظ : هى أولى الأسواق الثلاث وأكبرها وأهمها بل أعظمها[٢]، وقد اختلف الباحثون[٣] فى تحديد مكانها . وأقرب ما يمكن استخلاصه من آرائهم فى موقعها أنها كانت بأعلى

---

(١) سورة الحج ، الآية ٢٧ .

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموى ، جـ ٤ ، ص١٤٢ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ .

(٣) راجع فى ذلك :

أ– الأزمنة والأمكنة لأبى على أحمد بن محمد المرزوقى الأصفهانى ، جـ٢ ، ص١٦٥ ، مطبعة دائرة المعارف ، بحيدر أباد الدكن (١٣٣٢هـ) الهند .

ب– موقع عكاظ ، دكتور عبد الوهاب عزام ، ص٤٣ – ٥٣ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٠ .

ج – أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، جـ١ ، ص١٩٠ جـ٢ ص٣١٠ لأبى الوليد محمد عبد الله الأزرقى ، طبعة دار الأندلس (١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م) بيروت عن نسخة حققها ونشرها بمكة رشدى الصالح ملحس ، سنة ١٣٢٥ – ١٩٣٣م .

د – معجم البلدان لياقوت الحموى ، جـ٤ ، ص١٤٢ ، جـ١ ، ص٤٤٩ .

هـ– الأغانى ، جـ٢٢ ، ص٦٤ لأبى فرج على بن الحسين الأصفهانى ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٧م .

نجد فى أرض هى من ديار قبائل قيس بن عيلان بن مضر ، شمال الطائف ، وشمال شرق وادى نخلة ، وراء قرن المنازل بنحو أربعة وعشرين ميلاً أى مسيرة ليلة واحدة على طريق المسافر من مكة إلى اليمن .

وكما اختلف الباحثون فى تحديد موضعها ، اختلفوا أيضاً فى تحديد تاريخ بدايتها الزمنى ، وقد لخص عرفان حمور( )آراءهم ، فالباحثون ما بين فريقين : أحدهما يذهب إلى أنها قد بدأت فى الظهور على مسرح التاريخ فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وربما حدد محمود شكرى الآلوسى( ) تاريخها بعام ٥٨٥ ، وقد تابعه فى ذلك محمد حسين هيكل( ). وثانيهما ذهب إلى أقدم من ذلك كأحمد أمين( )، وانتهى سعيد الأفغانى( )إلى أنها أى سوق عكاظ قد بدأت فى حوالى عام ٥٥٠ م وربما إلى أول القرن السادس ، وربما تستطيع النصوص الأدبية أن تؤيد الرأى الثانى باعتبارها وثائق تاريخية ، يقول النابغة الجعدى( )من الكامل :

ولقد شهدتُ عكاظ قبل محلّها فيها ، وكنت أُعَدُّ فى الفتيان
والمنذر بن محرقٍ فى مُلكه وشهدتُ يوم عجائن النعمان

ويقول( )فى أخرى من الوافر :

فمن يكُ سائلاً عنى فأنى من الفتيان أيامَ الختانِ

فالنابغة وكما يبدو من الآبيات كان لا يزال فتى( )(وحينما ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء نحو سنة ٥٠٦م وكان شاباً كذلك أيام " الختان " وهو مرض خطير وقع فى عهد المنذر ،

( ) سوق عكاظ ومواسم الحج ، ص٢٠٣- ٢٠٦ت . عرفان محمد حمور ، مؤسسة الرحاب الحديثة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠ .

( ) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، جـ١ ، ص٢٧٠ شرح محمد بهجة الأثرى ، دار الكتاب العربى بمصر ، الطبعة الثالثة .

( ) فى منزل الوحى ٣٦٣-٣٦٤ مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م) ، القاهرة .

( ) عكاظ والمزيد – مجلة الرسالة لسنة ١٩٣٣ ، ٢٥/١٣ .

( ) أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ، ص ٢٠٩ ، ت . سعيد الأفغانى .

( ) ديوان النابغة الجعدى ، ص١٧٦، جمع وتحقيق د. واضح الصمد ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨ .

( ) نفسه ، ص١٧٨ .

( ) سوق عكاظ ومواسم الحج ، ت.عرفان حمور ، ص ٢٠٤-٢٠٥ .

ففتك بالناس والإبل ، فأرخوا به عدوه من الحوادث العظام ، وقال أنه عاش حتى أدرك زمن الملك النعمان بن المنذر [٦٠٤-٥٨٣م] . ثم أدرك الإسلام ، فأسلم وكانت له صحبة وتوفى نحو ٦٧٠م عن عمر طويل ، قيل أنه بلغ مئة وثمانين سنة أى أن مولده كان نحو ٤٩٠م وشهوده عكاظ كان فى أوائل القرن السادس وربما منذ سنة ٥٠٥ أيام حداثته) .

ويضيف المخبل السعدى معلومات تاريخية تؤكد نفس التاريخ حينما يفتخر بجده سعد بن زيد مناة ، يقول من الطويل[١] :

ليالىُ سعدٍ فى عكاظ يَسُوقُها له كل مشرقٍ من عكاظ ومغربِ

والبيت يورد أيضاً أمر القضاء وعكاظ ، ويؤكد أن الحكومة فيه كانت لتميم فلقد اتفق أهل الأخبار[٢] على أن (سعد بن زيد مناة بن تميم هو أول من اجتمعت له الخصلتان معاً من بنى تميم : إمامة الموسم ، والقضاء بعكاظ ، ومعنى هذا أن أحدهما كانت فى أبيه ، والأخرى كانت فى عمه عمرو بن تميم ، ثم صارتا بعدئذ إرثاً فى أبنائهما) . ولقد ظلت سوق عكاظ تقوم بدورها الثقافى والاقتصادى –كما سيأتى بسط ذلك – ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان ، إذ أنه لو صح تاريخ بدايتها فى أوائل القرن السادس الميلادى –كما أشرنا – فإن التاريخ يؤكد أن نهايتها وانصراف العرب والمسلمين عنها جاء فى حوالى عام ٧٤٧م ، وتحديداً فى عام ١٢٩هـ ، وكانت بداية خرابها وزهد الناس فيها مجموعة من العوامل لعل أهمها دخول المختار بن عوف الأزدى الحرورى الأباضى على رأس جيش من خوارج مكة واحتدام الصراع[٣] بها حيث عمل على تخريب بعض المواضع منها سوق عكاظ ، ولعل هناك أسباباً أخرى قد أسهمت بشكل فعال فى انتهاء دور عكاظ الثقافى والتجارى ، إذ انصرف كثيرٌ من رواد هذه السوق من الأدباء والشعراء إلى الدين الإسلامى يستذكرون القرآن والحديث منشغلين بالدين الجديد عن عصبية ما قبل الإسلام التى كانت مظاهرها واضحة فيما كان يعرض بعكاظ من أشعار ومنافرات ، وهناك أسباب أخرى قضت على دور عكاظ الاقتصادى إذ نافسها فى شبه الجزيرة العربية خاصة فى البلدان المفتوحة شمالاً وشرقاً عددٌ من الأسواق التى ازدهرت وأصبح لها دور يؤبه له أكثر من عكاظ وغيرها من الأسواق الجاهلية ، أما موعد انعقاد سوق عكاظ فهناك شبه إجماع من علماء التاريخ إنه إذا أهلَّ هلال ذى القعدة انعقد السوق ليظل قائماً مدة عشرين يوماً ، لتأخذ سوق مجنة العشرة الأواخر

---

[١] الأزمنة والأمكنة ، جـ٢ ، ص١٦٧ للمرزوقى .

[٢] سوق عكاظ ومواسم الحج ، ت : حمور ، ص٢٠٦ .

[٣] أخبار مكة ، جـ١ ، ص١٩٠ ، ت . الأزرقى .

من ذى القعدة ، ثم ياتى ذو المجاز ليأخذ الأيام الثمانية الأولى من ذى الحجة حتى يوم التروية . والواضح أن هذه الأسواق كانت مرتبطة بشهور الحج إذ يجدها حجاج البيت فرصة للتجارة وما إلى ذلك من أمور حياتهم الشخصية ، يقول ابن عبد ربه( ) : (وكانت العرب تجتمع فيها للتجارة والتهيئ للحج من أول ذى القعدة إلى وقت الحج) . ومعنى ذلك أن هذه الأسواق المتعاقبة إنما ارتبطت فى نشأتها بموسم الحج كما أشرنا سابقاً إلى مكة كل عام ، فغاية انعقاد تلكم الأسواق على اختلافها هو الحج الذى كان هو الغاية الأعلى والهدف الذى أوجد هذه الأسواق وحدد لها أزمنتها ، ولعل عرفات ومنى كانا سوقين( ) هما الآخران . وقد ذكر الأزرقىّ أن العرب كانوا كلما أهلَّت شهور الحج وهى شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، يخرجون إلى مواسمهم فى عكاظ ومجنة وذى المجاز وعرفة ومنى ، فهذه مواسم الحج (وكانوا يقولون : لا تحضروا أسواق عكاظ ومجنة وذا المجاز إلا محرمين بالحج)( ) .

ب– أما سوق مجنة : فهى ثانية أسواق موسم الحج ، وكانت تلى سوق عكاظ زماناً ، وهناك شبه اتفاق على موضع سوق مجنة بأنها كانت تعقد شمال مكة على بعد اثنى عشر ميلاً بمنطقة مر الظهران( ) قرب جبل الأصفر شمال مكة ؛ وكانت السوق تقع فى بنى خاصة من كنانة ، ويبدو أن مجنة كانت منطقة معروفة بطيب هوائها وصفاء مائها يبدو ذلك من قول حسان بن ثابت يتمنى فيه أن يبيت ولو ليلة بمنطقة فخ حيث وادى الزاهر بمكة وحيث تحيط به الأعشاب طيبة الرائحة ويشرب من ماء مجنة بجانب جبلى شامة وطفيل إذ يقول( ) :

( ) العقد الفريد لابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسى ، جـ٥ ، ص٢٥٣ شرح أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبيارى ، دار الكتاب العربى ، لبنان ، ١٩٨٢م .

( ) نعم كان عرفات ومنى يمثلان سوقين ، وكان العرب يحرمون التجارة عند حجهم بعد ذى المجاز حتى أباح لهم التجارة إلى جانب الحج ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ (البقرة ١٩٨) وذكر الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور فى شرحه ديوان النابغة الذبيانى ص٢١٩ حاشية رقم (١) أن الأسواق التى كانت للعرب قبل الإسلام فى أثناء حجهم هى عكاظ ومجنة وذو المجاز وزاد عرفات وحنين .

( ) أخبار مكة ، جـ١ ، ص١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، وراجع سوق عكاظ ومواسم الحج ، ت . حمور ص٢١١ .

( ) أخبار مكة ، جـ١ ، ص١٩٠ ، وأصحح القاضى عياض بعدها عن مكة بثلاثين ميلاً أى بريدين ، نقل ذلك ووافق عليه الفاسى فى شفاء الغرام ، ص٢٨٤ .

( ) تاريخ دمشق لابن عساكر ، جـ٦٠ ، ص٣١٩ – ٣٢٠ ، مطبوعات المجتمع العلمى العربى بدمشق ومعجم البلدان ، جـ٥ ، ص٥٩ ، ولم أجد الأبيات بديوان حسان .

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلة بفخ وحولى إذخرٌ وجليلُ
وهل أرَدن يوماً مياه مجنةٍ وهل يبدون لى شامة وطفيل

أما ميقات انعقاد هذه السوق فكان فى العشر الأواخر من ذى القعدة أى بعد انفضاض سوق عكاظ تواصلاً مع موسم الحج ، وكان من يفوته شراء شئ أو بيعه أو عرض أدبه أو أسير له ، أو البحث عن ثأر أو غيره فى سوق عكاظ طلبه فى سوق مجنة إذ أن مجنة كانت تقوم بكل ما كانت تقوم به سوق عكاظ من أنشطة تجارية وأدبية ، ويبدو أن الخمر كانت قبل الإسلام من أشهر السلع التى كانت ينتظرها حجاج مكة ليبتاعوها إذ أنها تجلب خصيصاً إلى مجنة من بصرى وغزة ، فأبو ذؤيب الهذلى يصف أجود أنواع الخمر وهى السلافة داخل دنان مطلية بالقار لحفظها توضع خلف الراكب تُشترى من سوقى بصرى وغزة شمالاً وتحمل فوق نياق قوية تحتمل سير هذه المسافات الطوال حتى تأتى بها سوق مجنة صافية رائقة لذة للشاربين يقول[1] :

سُلافةُ راح ضمنَّتها إداوةٌ مُقبرّة ردف لمؤخرة الرَّحل
تَزَوَّدَها من أهل بُصرى وغَزَّةٍ على جَسْرةٍ مرفوعة الذَّيلَ والكِفْل
فوافى بها عُسْفَانَ ، ثم أتى بها مَجَنَّة تصفو فى القلال ولا تغلى

وقد آلت سوق مجنة إلى ما آلت إليه سوق عكاظ من إهمال بعد الإسلام ، إذ انصرف عنها المسلمون لخير منها ولم يعد لها كبير أثر فى دفع الحركة الأدبية والعلمية وكذا التجارية بعد الإسلام .

جـ- ذو المجاز : هى ثالثة الأسواق انعقاداً بعدما تنفض سوق مجنة ، وتقع هذه السوق على بعد ثلاثة أميال من الموقف بجبل عرفات بالقرب من جبل كبكب الذى يجعله الواقفون بعرفات خلف ظهورهم[2] وكان لبنى هذيل بن مدركة وفيها يقول المتوكل الليثى[3] :

للغانيات بذى المجاز رسوم فى بطن مكة عهدهن قديم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله عارٌ عليك إذا فعلت ، عظيم

---

[1] معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٥٩ .
[2] أخبار مكة ، جـ١ ، ص ١٩١ ، ومعجم البلدان ، جـ ٥ ، ص٥٥ ، جـ٥ ، ص٥٦٥ .
[3] راجع معجم البلدان لياقوت الحموى ، جـ٥ ، ص٥٥ .

ويبدأ انعقاد السوق عندها يهل هلال ذى الحجة إذ ينصرف الحجاج ولا يزالون محرمين من مجنة إلى ذى المجاز حتى اليوم الثامن منه وهو يوم التروية ، إذ ينزلون بذى المجاز ليتروووا من الماء وكان ذو المجاز ذا أهمية وخصوصية عن سابقيه لوجهين :

الأول : أنه كان يعد آخر الأسواق الكبرى فى موسم الحج فعلى من لم يستطع أن يبيع أو يشترى شيئاً أو يعرض بضاعة أدبية أو اجتماعية فى عكاظ أو مجنة أن يدرك ذا المجاز ليقضى فيه وطره قبل انقضاء موسم الحج ، والوجه الثانى : هو أن العرب كانت تبيح فى موعد هذه السوق بذى المجاز التجارة إلى جانب نُسك الحج ، إذ يحل للحاج الجمع بينهما ، ذلك لأنه سيحرم عليه فى عرفة ومنى أن يتجر بشئ ليتفرغ للعبادة حتى جاء الإسلام وأباح الرسول للحجيج أن يتجروا فى هذه الأيام .

رابعاً : الأسواق الثلاث ومكانتها :

لقد كانت لهذه الأسواق مكانة خاصة فى نفس زوارها الذين جاؤها من كل حدب وصوب من شبه الجزيرة العربية وأطرافها ، وهذه المكانة قد اكتسبتها مكة ذاتها بوصفها موضع البيت الحرام الذى يحمل كل زواره له مكانه خاصة فى القلوب ، وإذ علمنا أن هذه الأسواق قد ارتبطت تاريخياً بموسم الحج أصبح واضحاً لدينا مدى ما كان لها من منزلة مقدسة حتى أنهم كانوا يقولون لا تنزلوا هذه الأسواق إلا وأنتم محرمون ، من هنا اكتسبت هذه الأسواق مكانتها من مكة وحرمها ، ومن كونها كانت تعد جزءاً من موسم الحج فى أشهر الحج ، وهذا بالضبط ما جعلها على عكس غيرها من الأسواق معفاة من أنواع الضرائب التى كانت تفرض فى نظائرها من الأسواق يقول أحدهم فى ذلك[1]: (ليس فيها مكاس ولا عشار[1] لأنها لم تكن فى ملك أحد من الأمراء . وقربها من مكة ومشاعر الحج ألبسها حرمة تتقصف دونها مطامع الكبراء) ، فلم تكن هذه الأسواق كغيرها من الأسواق فى أطراف شبه الجزيرة العربية تقع فى حوزة ملك من الملوك يستبد بها ويفرض فيها العشور والضرائب إضافة إلى أنها – كما قلنا سابقاً – كانت مشموله بحرمة موسم الحج إلى بيت الله الحرام بمكة ، بل كانت هذه الأسواق تحظى باحترام الأمراء والكبراء من ملوك الشمال الذين كانوا على بعدهم الجغرافى عنها يعرفون قدرها وقيمها المحورية فى المنطقة . الأمر الذى كان يدفع بعضاً منهم خاصة ملوك العراق إلى أن يحيطوا هذه الأسواق برعايتهم وعنايتهم[2] (وأن يضعوا الجوائز القيمة باسم[2] الشعراء البارعين) بل أكثر من ذلك كان أهل مكة

---

[1] أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ، ت . سعيد الأفغانى ، ص ٢٥١ .

[2] سيد قريش ، جـ٢ ، ص٢٢ – ٢٣ ، ت . معروف الأرناؤط ، مطبعة فتى العرب ، دمشق ، ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م .

ذاتهم هم الذين يأخذون ضرائب من التجار الذين كانوا ينزلون مكة فى رحلاتهم التجارية وعرفت هذه الضريبة بـ " الحريم "[1] .

فما كان لهذه الأسواق الثلاث أن تأخذ مكانها على خارطة أسواق العرب إلا لأنها كانت تقع فى حمى مكة التى ألقت عليها غلالة قداستها وشيئاً من حرمتها وقدسيتها فى النفوس[2] (يقول ابن الفقيه إن أهل مكة لم يؤدوا فى الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم خزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل إذا دخلوا الحرم ، وهم بعد أعز العرب ، يتآمرون عليهم قاطبة) .

بقى لنا أن ننظر إلى هذه الأسواق الثلاث من حيث أهميتها ، لا فى ذاتها فى فحسب ، وإنما فى دعمها للنهضة العلمية والثقافية ، وبصيغة أخرى إننا فى حاجة ماسة للتعرف على مدى ما أسهمت به من دور فاعل فى دفع حركة العلم أوالثقافة على وجه العموم إلى الأمام وكانت هذه الأسواق تمثل دوراً مؤثراً فى الحركة الثقافية إلى جانب أدوار أخرى جعلت من مكة المكرمة مركزاً ثقافياً عالمياً إلى كونها كعبة حجاج الأرض ومنطلق دعوة السماء إلى أهل الأرض بالتوحيد ، ودين الله الإسلامى . ولذلك سنحاول فى السطور التالية تحديد الدور الذى لعبته هذه الأسواق ، وهذا الدور يتمثل فى الأساس فى أهميتها التى يمكن عزوها إلى قسمين : أهمية ثقافية وأخرى اقتصادية ، كلتاهما تعكس ذلك الدور الحضارى الذى لعبته أسواق مكة فى الجاهلية وفى الإسلام .

أ – الأهمية الثقافية :

ولأن الثقافة فى أعم معانيها تشمل أدوات شتى ينتمى بعضها إلى اللغة كأحد طرق التواصل بين أفراد المجتمع الواحد وغيره من المجتمعات . والأدب بوصفه فناً لغوياً انتهت عنده اللغة إلى كامل نضجها وتمامها ، ومن هذه الأدوات الثقافية أيضاً مجموعة العلاقات الاجتماعية التى كانت تمثل بنية المجتمع بقبائله وعشائره وما يتصل به من عادات وتقاليد ، لذلك فيمكننا تلخيص هذه الأهمية فى ثلاثة أبعاد تشكل هذه الأهمية الثقافية .

١. فى جانب اللغة العربية :

لقد شاء الله لأسواق مكة أن يكون زوارها من أمشاج مختلطة من الأجناس البشرية التى كانت تسكن شبه الجزيرة العربية وما حولها من إمارات الجنوب اليمنى والشمال العراقى

---

[1] الاشتقاق لابن دريد نقلاً عن شوقى ضيف – العصر الجاهلى ، ص٥٠ .

[2] نقلاً عن نفسه .

والشامى ، وأتخيل أن من كان ينزل هذه الأسواق ليلتمس حاجة له ، يسمع لهجات عربية شتى ، كل منها ينتمى إلى اللسان العربى الأم ، وإن كل واحدة من هذه اللهجات العربية تحتفظ بخصائصها الصوتية الخاصة بها ، وإلى جانب هذه اللغات العربية أتصور أنه قد كان هناك من غير العرب من كان يتحدث بلسانه الفارسى أو الرومى ثم إذا تكلف العربية لحن ، فالسوق إذن كانت مسرحاً بل معرضاً للغات شتى ما بين فصيح بدوى وآخر حضرى وبين لفظ أجنبى ولحون يلحظها زائر إحدى هذه الأسواق وسط المنشد لقصيدة والهاتف لعصبية والزاعق لبضاعة غير أن هذه الأسواق خاصة عكاظ كانت بمثابة الغربال الذى أخذ ينخل اللغات ويقوم بعملية اصطفاء للفصيح منها ، وما كان هذا إلا من خلال الاحتكاك بين أصحاب لغات العرب بعضهم ببعض فإذا هم يجلسون ويتحدثون ويتحاورون ويقوّمون ما اعوج من ألسنتهم . وهذا الاحتكاك الثقافى اللغوى كان غالباً داخل سرادقات أدبية ومهرجانات شعرية ، تتوازى مكاناً وزماناً مع غيرها من الأنشطة التجارية والاقتصادية التى كانت تنهض بها أسواق مكة الثلاث . إذن يمكننا القول – مطمئنين مع آخرين من الباحثين – إن أسواق مكة الثلاث قد أتاحت فرصة لصراع اللغات – اللهجات – العربية وكذا الشرقية .

وكانت هذه الأسواق فى مظهرها الأدبى الذى سوف يأتى بسطه حلبة هذا الصراع الثقافى استطاعت فيها لغة معينة أن تحتوى باقى اللغات ، وتصرع بعضها الآخر ، حينما لم تصمد هذه اللغات الأخرى لقوة هذه اللغة وقدرتها الفائقة على ابتلاع غيرها وهضمها وإعادة تمثلها وتوحيدها فى صورة واحدة ذات سلطان وسيادة مهيمنة وأعنى بهذه اللغة لغة قريش سكان مكة وساداتها ، الذين كان لهم بأسواقها كلمة ورأى مسموعان .

لقد هيأت تلكم الأسواق الثلاث التى لا تفتأ إحداها أن تقوم تلو الأخرى وتقعد على تخوم مكة ، هيأت للهجة قريش دون غيرها من لهجات العرب أن تسود ويعلو سلطانها فى الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة[1] وأن تصبح هى اللغة الأدبية التى يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم وقد تدل على ذلك بعض الدلالة سوقها عكاظ ، فقد كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية ، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء قصائدهم ولم يُروى ذلك عن سوق سواها ، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، ومارددوه فيها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبده التميمى فأنشدهم قصيدته : " هل ما علمت وما استودعت مكتوم " فقالوا : " هذا

---

[1] العصر الجاهلى ، شوقى ضيف ، ص١٣٣ ، ١٣٤ .

سمط الدهر " ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته " طحا بك قلب فى الحسان طروب " فقالوا : " هاتان سمط الدهر " وإذذن فنحن لانعدو الواقع إذ قلنا أن لهجة قريش هى الفصحى التى عمت وسادت فى الجاهلية لا فى الحجاز ونجد فحسب ، بل فى كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفى اليمامة والبحرين وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة فى أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبنى الحارث بن كعب فى نجران) .

لقد حدث ما يمكن تسميته بالوحدة اللغوية قبيل الإسلام ولم تكن تلك الوحدة لتتحقق إلا بعد صراع طويل[1] (بدأ منذ ما قبل الميلاد واستمر نحواً من خمسة قرون ، قضت الحجازية على اليمنية قبل لهجاتها ، وتحققت الوحدة اللغوية حينئذ بين العرب فى الجزيرة) .

ويضيف أحدهم ملقياً الضوء على نهاية الصراع بقوله[2] : (وما هو إلا أن نزل القرآن بها ، حتى بدأت معركتها الأخيرة ضد الآرامية ، فصرعتها ، وصارت لها السيادة المطلقة فى جميع أنحاء جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ، ولم ينج من سيطرتها سوى مناطق قليلة معزولة ، ظلت على الآرامية أو العبرية) .

وربما كان لعكاظ أكبر الأدوار فيما يمكن أن يسمى بمراحل التهذيب اللغوى قبل توحيدها على لغة قريش ، إذ كانت قريش[3] (تبالغ فى انتقاء اللهجات ، وانتقاء الأفصح من مفرداتها) وهذا التهذيب لم يكن وليد يوم أو عام بل كان نتاجاً طبيعياً لجهد جماعى استمر سنوات حتى استطاعت لغة قريش الفصيحة أن تكون سيدة لهجات العرب وتجعل الأدباء فى شتى أنحاء الجزيرة يتجهون بلغة شعرهم إلى مكة التى أصبحت كعبة الحجاج والشعراء معاً .

على هذه الحال مضت لغة قريش هى اللغة الفصحى المعتمدة والتى يجوز بها شعراء العرب عموماً مكانهم ومكانتهم بين الشعراء ، ولغرض ما ذهب بعض المستشرقين فى طلب الفصحى العربية فى غير لهجة قريش ، فذهبوا يبحثون عنها فى لهجات أخرى فى قبائل نجد ، وقد رد عليهم د. شوقى ضيف بأن زعمهم ذاك لا يقوم لأنهم كانوا (متناسين أن شيوع لهجة بعينها لابد أن تقترن به حالة سياسية أو روحية أو حضارية ، تهيئ لها هذا الشيوع والانتشار)[4] .

٤

---

[1] سوق عكاظ ومواسم الحج ، ت . عرفان حمور ، ص١٦٩ .
[2] سوق عكاظ ومواسم الحج ، ت. عرفان حمور ، ص١٦٩ .
[3] تارريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعى ، جـ١ ، ص ٨٧ ، ٩٥ ، طبعة مصر .
[4] العصر الجاهلى ، ت. د. شوقى ضيف ، ص١٣٣ .

وهنا ينبغى أن ندرك أنه ثمة إرادة إلهية شاءت هذا الدور من التحول أو قل تَجَمُّع اهجات شتى وانصهارها تحت لواء لهجة واحدة هى لهجة قريش بوصفها أفصح اللهجات حتى ينزل القرآن الكريم بها ، بعدما شاعت وأصبحت اللهجة الرسمية التى تكتب بها أروع النصوص الأدبية وأخلدها ، ولعل طه حسين لم يخطئ حينما أكد أن شعرنا الجاهلى إنما نستدل على صحته اللغوية من القرآن الكريم ذاته وليس العكس[1] ، ولسوف يأتى أن اتفاقاً ما لغوياً وبنائياً انتهى إليه الشعراء قبيل الإسلام فجمعهم أسلوب صناعة شعرية واحد يشف عن وحدة اللغة والتصور الفنى للأشياء .

والحق أن توحيد اللغة على النحو الذى بيّناه لم يكن الفضل يرجع فيه لقريش خاصة إذ كانت هناك قبائل عُرفت أكثر من قريش بالفصاحة وخرج من بطونها الشعراء والخطباء ولعل قبيلتى إياد وتميم أكبر مثل – إلى جانب أسد وهذيل وقيس – على تفوق قبائل كثيرة فى صناعة الشعر الفصيح ، فالفضل إذن يرجع فى الأساس إلى المكان والزمان الذى جمع كل الشعراء من شتى القبائل والبطون فوحدوا لغتهم وأعنى الأسواق خاصة عكاظ التى كانت بمثابة مجمع اللغة العربية ، عمل على فرز مابها من عيوب وانتقى واصطفى الأسلم والأفصح ، فاستبعدت اللغة حينئذ كثيراً من العيوب التى تلحق بعض اللهجات وهى عيوب ترجع فى الأساس إلى خصوصية فى نطق بعض الحروف لدى لهجات معينة عرف بها أصحابها منها[2] عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ٢ وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس ، وتلتلة بهراء ، وعجرفية ضبة ، وعمعمة أو عجعجة قضاعة ، وطمطمانية حمير ، ولخلخانية عمان والشحر .

والذى يبدو لقارئ أشعار العربية خاصة المعلقات فى خلوها من مثل هذه المعايب فى النطق يتأكد له أن سوق عكاظ ومجنة وذا المجاز حينما كان الشعر ينشد فى إحداها كان بريئاً من

---

[1] فى الأدب الجاهلى لطه حسين ، راجع المقدمة ، دار المعارف ، الطبعة العاشرة ، ١٩٦٩ م .

[2] البيان والتبيين ، جـ١ ، ص١٣٧ ، ١٣٨ لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٣٢ ، تحقيق حسن السندوبى .
العنعنة : إبدال همزة أول الكلام عيناً فيقولون عن بدلاً من أن ، الكشكشة هى : قلب كاف خطاب المؤنث الأخير شيناً مثل كتابش بدلاً من كتابك ، والكسكسة هى : قلب كاف الخطاب فى المذكر سيناً فيقولون كتابِس بدلاً من كتابك ، التضجع هو الإمالة والخفض ، التلتلة هى : كسر أوائل الحروف ، كسر أوائل الحروف ، كقولهم : تعملون وتعقلون وتصنعون . العجرفية : التقعر فى الكلام . الغمغمة : هى عدم إظهار بعض حروف الكلمات أثناء الكلام . العجعجة : يجعلون الياء جيماً مع العين كقولهم : راعج فى راعى ، ومعج فى معى . اللخلخانية : كقولهم مشا الله بدلاً من ما شاء الله . الطمطمانية : كقولهم طاب امهواء بدلاً من طاب الهواء ، يجعلون الميم بدل ألف التعريف . ومنه " وفدهم على رسول الله وقد سألوه : هل من امبر امصيام فى أمسفر ؟ وأرادوا هل من البر الصيام فى السفر " .

مثل هذه العيوب ، ولو أن شاعراً غدا ينشد فى عكاظ أو غيرها شعراً تضمن كشكشة أو عنعنة ..... إلخ لأصبح أضحوكة لسامعيه وأصبح شعره نكتة يتفكه بها أهل السوق[1] .

خلاصة القول إذن أن اللغة العربية قد بلغت فى الجاهلية وقبل نزول القرآن الكريم حداً من الاستواء وبلغت درجة من التمام والكمال فأضحت لغة مثالية فى المجتمعات الأدبية بعكاظ ومجنة وذى المجاز قامت هذه اللغة فى الأساس على خير اللهجات العربية بما فيها لهجة قريش وغيرها من القبائل الفصيحة كإياد وتميم ، وبهذه اللغة الناضجة القوية جرت الأشعار ودُبجت الخطب ، ولم تمتلك هذه اللغة قوتها وصفاءها إلا بعد ما نفضت عن نفسها العيوب النطقية فى بعض اللهجات (فبدت فى أحسن حلة ، فيما وصل إلينا من أدب عصر الجاهلية ، وظهرت فى أبلغ صورة حينما نزل القرآن الكريم بها ، فى بلاغته المعجزة وتحديه العرب أن يأتوا بمثله ، على ما لهم من بلاغة وفصاحة ، ونظر ثاقب فى دقة التعبير ، وخفايا القول وأسراره)[2] وهذا ما يدفعنا للوقوف على البعد الثانى من أبعاد الدور الثقافى الذى مثلته أسواق مكة ، وأعنى الدور الأدبى الذى كان جزءاً من النهضة الثقافية والعلمية التى لعبت فيه مكة ودورها الحضارى .

٢. فى جانب الأدب :

إننا لا نغالى إذ قلنا إن نهضة الشعر العربى فى الجاهلية خاصة ، مدينة إلى أسواق العرب التى كانت تعقد فيها مجامع الشعر وتنصب قبابه ، ولاشك أن الأسواق الأدبية كانت تمثل الإجازة التى يمنحها النقاد والسامعون والرواة للشعراء الذين يقصدون هذه الأسواق لعرض أشعارهم ، فإذا أضفنا إلى هذا ما قلناه سابقاً من أن هذه الأسواق كانت بمثابة المجامع اللغوية التى وحدت لهجات اللغة العربية فى لغة رسمية صافية ، أمكننا إذن القول ثانية بتوكيد دور هذه الأسواق واخص منها عكاظ لسببين : لشهرته كمهرجان أدبى من ناحية ، ولطول مدته الزمنية التى تبلغ العشرين يوماً على عكس السوقين اللتين تتليانه ، أجل لقد كان لعكاظ وغيره السبب الأقوى فى نهضة الشعر الجاهلى والعربى بعامة وكان الشعراء أنفسهم يعرفون خطر هذه الأسواق ، كذلك كانت أحياء العرب تعرف لها خطورتها ، لذلك حرص الشعراء أن يعرضوا أشعارهم التى عكفوا عليها حولاً كاملاً أو بعضه ، على السامعين بعكاظ مثلاً . ولعل أظهر الشواهد هى قصيدة عمرو بن كلثوم التغلبى المعلقة المشهورة التى عدها الرواة والنقاد فخر العرب لعصبيتهم لأنها تلتهب حماسة وإعظاماً لنفس العربى الأبى .

---

[1] راجع : دراسات فى فقه اللغة ، ص ٩٦ ، د. صبحى الصالح ، دار العلم للملايين , الطبعة التاسعة ، بيروت ١٩٨١ .

[2] سوق عكاظ ومواسم الحج ، ت. عرفان محمد حمور ، ص١٩٠ .

لقد حرص صاحبها أن ينشدها فى عكاظ حتى تسير شهرتها بين أحياء العرب ويتحثون بها ركبانا ورجالاً وهذه القصيدة التى مطلعها[1] :

ألا هُبى بصحنك فاصبحينا ولا تُبقى خمورَ الأنْدرينا

وقد حقق صاحبها ما يصبو إليه من فخار لقوميته بقدرته على الفتك بالملك عمرو بن هند اللخمى نحو سنة٥٦٩ م ، وقد طارت شهرتها فى الأفاق بين أحياء العرب وكتب لها الخلود الأدبى وذلك يرجع لأنها قد قيلت فى محفل عكاظ الذى ختم عليها بخاتمة فذاع صيتها عبر الزمن .

وإذا أراد شاعر من الشعراء أن يهدد آخر لوّح له بالقول أن سيُدبج فيه قصيدة تدب فى عكاظ وتزلزل مسامع أحياء العرب ، والخطورة هنا لا ترجع إلى ما فى القصيدة بقدر ما ترجع إلى المحفل العكاظى ذاته . وأشهر حادثة فى ذلك الموضوع ما جرى بين أمية بن خلف الخزاعى وبين حسان بن ثابت إذ هدد الأول صاحبه بأن يكتب فيه قصيدة هجائية لها دويها إذا قيلت فى عكاظ يقول أمية[2] :

ألا ، من مُبلغ حُسان عنى مُغَلْغَلةً تَدبُّ إلى عكاظ

ويرد عليه حسان بن ثابت مهدداً بنفس السلاح الماضى بين الشعراء ، وهو سلاح عكاظ يقول حسان[3] من الوافر :

أتانى عن أمية زُورُ قوْل وما هو فى المغيب بذى حفاظ
سأنشر ما حييت لكم كلاماً ينشر بالمجامع من عكاظ

وما اخذت المعلقات شهرتها إلا بعد إجازة السامعين لها بالأسواق فما جرى على قصيدة عمرو بن كلثوم يجرى على قصيدة الحارث بن حلزة وامرئ القيس[4] (وسائر المعلقات الطوال ،

---

[1] راجع : شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها (معلقة عمرو بن كلثوم) الشنقيطى ، دار الأندلس ، بيروت د. ت .
[2] راجع القصة فى أمالى بن الشجرى ، جـ١ ، ص ١٢٦ ، طبعة حيدر آباد ، ١٣٤٩هـ .
[3] ديوان حسان بن ثابت الأنصارى ، جـ١ ، ص١٥٣ ، شرحه وعلق عليه دكتور وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٤ .
[4] سوق عكاظ ومواسم الحج ، ت . حمور ، ص١٨٠ .

فما كان الإجماع لينعقد على فوزها بالسبق ، والتفوق لولا أنها صبغت بلغة أدبية مثالية يفهمها العرب جميعاً بمختلف لهجاتهم ، وليس فئة مخصوصة منهم) .

كما أنني أعتقد أن بنات أحد رجال العرب المعوزين فى الجاهلية مدينات إلى الشاعر الأعشى الذى وفر لهن جميعاً الأزواج من أشراف العرب وأثريائهم وكان هذا نتيجة لأحدى قصائده فى مدح أبيهن المحلق ، وهذه القصيدة لولا قولها فى عكاظ خاصة ما سمع الناس عن المحلق وبناته ، فعندما انتشرت بين الناس تسابقوا للفوز بهؤلاء البنات زوجات لهم . وقصيدة الأعشى التى ألقاها بالسوق وكان لها هذا الأثر الاجتماعى الخطير فهى قوله[1] : (من الطويل)

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بى من سقم وما بى تعشق

وكما كانت لعكاظ أثر بالغ فى صيرورة أشعار أمية بن خلف وحسان ، كان لها أيضاً أثر فى تخليد كثير من منافرات العرب ومنافستهم الشعرية ويزخر كتاب أبى الفرج الأصفهانى[2] بألوان شتى من هذه المنافسات الشعرية . ولم تكن مثل هذه المنافسات الشعرية مقصورة على الرجال دون النساء ، بل شهدت عكاظ أيضاً تنافساً نسوياً بين كل من الخنساء وهند بنت عتبة فكلتاهما قالت شعراً حزيناً باكياً ، انطلقت شهرته من عكاظ ، فالخنساء ترثى أخويها وهند ترثى عتبة أباها وعمها شيبة وأباهما ربيعة .

أما أبو ذؤيب الهذلى فتكشف لنا بعض أبياته عن خطورة من الناحية الأدبية حينما يقول[3] من الوافر :

إذا بُنى القبابُ على عُكاظٍ وقام البيعُ واجتمع الألوفُ
تُواعدُنا عكاظ لننزلنهُ ولم تَعلم إذا أنّى حليفُ

ولم يكن حظ الخطابة فى عكاظ بأقل من حظ الشعر ، بل على العكس كانت العرب تحب الخطابة أكثر من الشعر وتلتف حول الخطيب فى الأسواق والمواسم لأنه كان يقدم حكمته

---

[1] ديوان الأعشى ، ص٢٦٧ ، تحقيق محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٤
[2] راجع : لأبى الفرج الأصفهانى : الأغانى ، جـ١٠ ، ص١٣١ وما بعدها ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٧م .
[3] ديوان الهزليين ، القسم الأول شعر أبى ذؤيب ، ص١٠٠ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط٢ ، القاهرة ١٩٩٥ .

ونصيحته المؤثرة فى نفس العربى بجرسها الموسيقى وإيجازها البلاغى ، وربما كان قس بن ساعدة الأيادى والأكثم بن صيفى من أعظم خطباء العرب قاطبة أفرد الجاحظ لهما أبواباً فى كتابه البيان والتبيين ، ومن المعلوم تاريخياً أن أشهر هذه الخطب هى خطبة قس بن ساعدة بعكاظ فى أحد مواسم الحج قبل البعثة ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم سوى غلام حديث السن غير أنه شهدها وسمعها ولا زالت بخلده تؤثر فيه معانيها القوية وحكمتها البليغة حتى بعد الإسلام ، يقول قس بن ساعدة الشيخ الوقور وهو راكب على جمل أورق متكئ على قوسه مرتجلاً[1] :

(أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدجاة ، وأنهار مجراة . إن فى السماء لخبراً وإن فى الأرض لعبراً ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا أم تُركوا فناموا ؟ يقسم قساً بالله قسماً لا إثم فيه : إن لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكراً ...) . وبعدما انتشر الإسلام وطبق آفاق الجزيرة وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أربعين عاماً تذكر حينما جاءه وفد من إياد قساً فسأل عمن يحفظ خطبته تلك التى لا يزال الرسول يذكرها ويذكر مشهدها بعكاظ فعندما يجيبه أحدهم بها يعجب بها ويدعو القس أن يبعثه الله يوم القيامة أمة .

كانت الأسواق إذن ذات أهمية أدبية بالغة فيما كان يقال فيها من شعر وخطب ، حتى أنها كانت بمثابة المهرجانات الأدبية التى تنطلق منها التجارب الأدبية العظيمة التى يُكتب لها الذيوع والخلود حتى الآن كالمعلقات والخطب ، وكان أولئك الشعراء والخطباء يحصلون فى هذه الأسواق على شهادة ميلادهم الأدبية ويحوزون إجازتهم من النقاد والرواة ليصبحوا أدباء معتمدين بين القبائل والأحياء العربية .

نقطة أخرى أتاحتها هذه الأسواق فيما كان يقال فيها من شعر خاصة ، وهى نقطة غاية فى الأهمية الأدبية واللغوية معاً ، فلقد لاحظ أحد الباحثين[2] أنه ثمة إرادة إلهية جعلت أساليب الصناعة فى الشعر قبيل نزول القرآن تتفق فى ملامح مخصوصة لغوية وتصويرية ، وتظهر هذه الأساليب فى شعر الخمر والأسفار على وجه الخصوص ، إذ اتفق الشعراء فى أساليبهم الصناعية فتشابهوا فى وصف الخمر وفى وصف الناقة وفى وصف أسفارهم عبر الصحراء ، وقد علل ذلك تعليلاً جيداً إذ أن ذلك كان يعد مظهراً من مظاهر الكمال اللغوى والوحدة الفنية التى مهدت

---

[1] البيان والتبيين ، الجاحظ ، ص٣٠٩ مطبعة الخانمى ، ط٥ ، ١٩٨٥ ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

[2] راجع : د. محمد محمد حسين ، أساليب الصناعة فى شعر الخمر والأسفار بين الأعشى والجاهليين ، " الخاتمة " دار النهضة ط٢ ، بيروت ١٩٧٢م .

للغة القرآن بعد ذلك ، وأضيف من عندى عاملاً آخر يتصل بالأسواق ذاتها ، إذ أن جُل هذه الأشعار الجاهلية كانت تعرض بأسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز فأضفت هذه الأسواق بنقادها المعروفين لوناً من الوحدة عليها فتشابهت الأساليب على لغة واحدة وانتظم الشعراء فى أساليب فنية نمطية استمدت نمطيتها من ذلك النظام الذى فرضته الأسواق الأدبية بذوقها اللغوى والفنى والخاص . ويتصل بالنشاط الأدبى لعكاظ نشاط مواز ، جعل من عكاظ وغيرها من الأسواق معرضاً فيه زخَمْ وفاعلية وأعنى به نشاط النقد الأدبى الذى كان يمارس ويستعد له الشعراء استعداداً خاصاً فكانت الأسواق وكما يقول أحدهم( ) معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية ؛ يلقى فيها الشعر والخطب ، وينقد ذلك كله ويهذب . وقصة النابغة الذبيانى الذى كان يشهد عكاظ وتضرب له فيها قبة حمراء ويأخذ مجلسه فى الحكومة بين الشعراء أشهر من أن نعيدها غير أننا نكتفى هنا فحسب بالإشارة إلى أن الأحكام النقدية التى أُسرت عنه وعن غيره فى هذه الأسواق أصبحت من تراثنا النقدى الذى لازلنا نتعلمه ونعلمه أبناءنا إننا فى حاجة إلى أن نتفحص كيف انتقد النابغة على سبيل المثال بيتاً واحداً لحسان وأوقفه فيها على أربعة أخطاء لغوية وفنية . وبذا تكون أسواق مكة قد مثلت فى نشاطها النقدى دوراً قلما يتكرر أنها( ) (مجمع أدبى لغوى رسمى ٢
له محكمون تضرب عليهم القباب فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم ، فما استجادوه فهو الجيد ، وما بهرجوه فهو الزائف) وإلى جانب ذلك كان النقاد يمنحون الشعراء ألقاباً جديدة ، مستعارة من صفة أشعارهم كالمرقش والمهلهل . ولعلنا نذكر ما قلناه عن الجوائز التى كانت ترصد للشعراء المجيدين من قِبل بعض الأمراء فى مهرجان الاحتفالات الأدبية بالأسواق ، ولعل إحدى هذه الجوائز أن بعضهم كانت قصيدته تفوز فتكتب بماء الذهب وتعلق بأستار الكعبة بمكة .

٣. فى الجانب الاجتماعى :

إن الأسواق العامة التى كانت حول مكة المكرمة لم تكن فحسب أسواقاً أدبية تجارية – كما سيظهر – بل كانت ذا أنشطة اجتماعية كثيرة ومتعددة . نظراً لأنها أسواق موسمية كان يؤمها الناس من كل مكان يلتمس فيها شتى أنواع الحاجات( ) (كان قاصد هذه الأسواق أيامّ الحج ، موزع السمع بين داعى إلى ثأر وناشد ضالة ومنشد قصيدة ، وخطيب ، وعارض بضاعة ، وآمر بمنكر ... ، فيجد شيئاً معروفاً قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا) .

---

(١) عكاظ والمربد ، ٢٣/١٣ ، مجلة الرسالة ، ١٩٣٣م ، د. أحمد أمين .
(٢) أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ، ص٢٤٣ ، ت. سعيد الأفغانى .
(٣) نفسه ، ص٣٠٣ ، ت. سعيد الأفغانى .

فكانت هذه الأسواق إذن تعكس شتى مظاهر الحياة الاجتماعية فى شبه الجزيرة العربية بشتى قبائلها ، وبطونها ، تعكس عاداتهم وتقاليدهم وشتى العلاقات الإنسانية الرابطة بين أفراد عشائرهم . ومن الطريف أن التاريخ يذكر لنا أن كبراء القوم وأشرافهم إذا نزلوا بإحدى هذه الأسواق لبسوا أقنعة على وجوههم حتى لا يُعرفوا . فطريف العنبرى أحد أشراف العرب وشجعانهم فضّل ألا يتقنع إذا نزل عكاظ كعادة شرفاء العرب حتى رآه رجل ، له عنده ثأر ، فنظر إليه وتوسمه جيداً ، وعندما فطن طريف له قال[1] من الكامل :

أو كُلْما وردتْ عُكاظ قبيلةٌ بعثوا إلىَّ رسُولهُمْ يتوسَّمُ

فكان يقصدها طلاب الثأر ، وحاملوا الديَّات ، والمصلحون بين المتخاصمين ، وكانت هذه الأسواق تعج بمن يُسبى من الفتيان والنساء لبيعهم أو لشرائهم ، ولقد اشترت خديجة بنت خويلد عبداً لها كان قد أُسر فى إحدى الغارات الجاهلية وهو زيد بن حارثة ، اشتراه لها ابن خالتها حكيم بن حزام[2] .

ويزخر الشعر العربى القديم بمدائح لكثير من كبراء العرب وأشرافهم الذين تحملوا ديَّات بعض القتلى ، وسعيهم بذلك للقضاء على كثير من الخصومات أو الثأر الذى ينشب فى الجاهلية بين القبائل .

كذلك كانت هذه الأسواق هى الملجأ الذى يلوذ به طالب الأمن أو الجوار حتى ينجو بنفسه من فتك بعضهم له ، علماً منه أن مَنْ يطلب الأمن فى مثل هذه المحافل العامة التى يحتشد فيها الناس من كل مكان يضمن سلامته لما تضفيه هذه الأسواق من مشروعية ولما تحظى به من ثقة القبائل ، فالعهود التى تُكتب فيها والمواثيق التى يتفق عليها بهذه المحافل تكتسب مصداقية وحرمة كحرمة البيت الحرام الذى يقصده الحجيج مُحرمين عبر أسواقهم[3] ، (فكم أوى إليها من خائف يطلب من يجيره فيجده ويلجأ إليه ويأمن وكم من رجل حمل معه فداء أسيره ففكه من أسره) .

---

[1] الأصمعيات ص١٦٧ ، عبد الملك الأصمعى ، دار المعارف ، القاهرة د.ت .
[2] المعارف ، بن قتيبة ، ص١٤٤ ، حققه وقدمه د. ثروت عكاشة ، ط٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ .
[3] أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ، ص١٧٥- ١٧٦ ، ت . سعيد الأفغانى .

وكان من يحترم عهوده التى وقَّع عليها فى هذه الأسواق ويفى بها ، رفعت له بهذه الأسواق راية الوفاء ليشتهر خلقه بين الناس وتكون هذه الراية بمثابة إعلان رسمى أو شهادة حسن سير وسلوك ، على عكس يغدر أو يخون رُفعت له راية الغدر [ ] والخيانة ليعرف أمره وتُفتضح خلائقه بين القبائل المحتشدة فيتجنبه الناس ولا يعاهدونه ، وكانت هذه سبيلاً فى إصلاح الكثيرين الذين خافوا على أنفسهم أن يصمهم العار بهذه الأسواق فاعتدلوا فى سلوكهم ووفوا بعهودهم .

ولعل من ضمن ما أسهمت به هذه الأسواق فى النهوض بالمجتمع المكى ، هى أنها كانت تشهد احتكاكاً سنوياً بين العادات والتقاليد المختلفة فى شبه الجزيرة العربية من بدوية جافية غليظة ، وحضرية سهلة ناعمة ، فكانت تقلل ما أمكنها ذلك من غلواء الأولى ، الأمر الذى انعكس على المجتمع المكى الذى لم يكن بدوياً محضاً ولا حضارياً خالصاً بل كان مجتمعاً تنصهر فى بوتقته شتى العادات والتقاليد كما انصهرت فيه من قبل شتى اللهجات العربية ، وقد دعم ذلك كونها أى مكة مركزاً تجارياً كبيراً وملتقى قوافل من العرب والعجم .

ب- أهميتها فى الجانبين السياسى والتجارى :

وكما كانت لهذه الأسواق أهميتها الثقافية التى مثلنا أبعادها بأهميتها اللثوية والأدبية والنقدية والاجتماعية ، كانت لها أيضاً أهميتها السياسية والتجارية ، ففى ضوء ما عرضناه أمكننا القول بأن الأسواق العامة حول مكة كانت محكمة عرفية ، فمن كان يريد أن يدفع إتاوة ما عليه ، أو يريد تخليد ذكر قومه أو التفاخر بانتصاره الحربى أو السياسى كما فعل عمرو بن كلثوم جاء هذه الأسواق وأعلن بها ما يريد أن يذيعه بين العرب ، وأكثر من ذلك فلقد كانت هذه الأسواق وخاصة عكاظ أشبه بندوة سياسية سنوية ، وكانت منبراً إعلامياً لمن أراد أن يعلن حرباً على قبيلة من القبائل ، ويشبهها أحدهم بجمعية الأمم المتحدة إذ يقول[ ] : (حتى جمعية الأمم وما تقوم به من مجهود رسمى فى سبيل السلم الخاص ، كان لها صورة مصغرة تشبهها بحسب الظاهر) .

كل هذا جعل من مكة ذاتها العاصمة القومية[ ] للعرب جميعاً ، وسوق عكاظ المجمع العام لقبائلهم ، والمعرض الكبير لمتاجرهم ، وبصيغة أخرى فقد كان لوضعها التجارى الذى يشبه الآن فى خطورته واستراتيجيته قناة السويس بمصر أثر بعيد دفع أحد الكتاب الأوربيين وهو لامنس أن يشبهها حينئذ بأنها – أى مكة – بأسواقها كانت أشبه بجمهورية كجمهورية البندقية التجارية[ ] .

---

[1] أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ، ص٢٨٤ .
[2] نفسه ، ص٢٤٥ .
[3] سوق عكاظ ومواسم الحج ، ص١٦٩ .
[4] نقلاً عن العصر الجاهلى ، ص ٥٠ ، ٥١ ، ت. شوقى ضيف .

وقد مرت علينا أبيات لأبي ذؤيب الهذلي تؤكد أن بعض هذه الأسواق قبل الإسلام كسوق مجنة مشهورة بألوان معينة من البضائع كالخمر ، وكانت عكاظ تجلب إليها البرود اليمنية والسيوف الهندية والعطور الفارسية ، وكذا كانت ذو المجاز . ولزيادة الفائدة قد جمعت في آخر البحث ملحقاً لبعض الشواهد الشعرية للشعراء الجاهليين والمخضرمين الذين ذكروا في أشعارهم تلكم الأسواق الثلاث ، وفي هذه الشواهد دليل على منزلة هذه الأسواق من الناحية السياسية والاجتماعية وغيرها من النواحي الإنسانية لتكون وثائق لمن أراد أن يطلع على ذكر هذه الأسواق في شعرنا القديم .

جـ – في الجانب الفكري :

وكما كان لهذه الأسواق من أهمية لا تنكر في توحيد اللغة وتقريب بعض العادات ، كان لها أيضاً أهمية في تقريب الأفكار وتوحيد الرؤية . وسرعان ما جاء الدين الإسلامي فسهل تلك النظرة التوحيدية أو قل التوفيقية ، وهذا ما عناه بروكلمان حينما قال : (وإلى هذه الأسواق وبالتالي إلى الدين بشكل غير مباشر ، يعود معظم الفضل في توحيد نظرة العرب الجاهليين إلى العالم ، وصهر عاداتهم ، ومفاهيم الشرف عندهم في بوتقة واحدة ، ومنحهم لغة شعرية مركزة ، تسمو على جميع اللهجات ، وتستغرقها)[1] حتى إذا ما بزغ نجم الدين الجديد تم به توحيد نظرة العرب إلى الوجود من حولهم بعدما وجهها الإسلام وجهته .

ومن المعلوم لدى المشتغلين بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم أن عكاظ وذا المجاز كانتا سوقين يغشاهما محمد بن عبد الله قبل بعثته في مواسم الحج شأنهما في ذلك شأن غيرهما من أسواق مكة حيث كان صلى الله عليه وسلم يتردد عليها جميعاً ، وبعد بعثته بثلاث سنوات أخذ يجهر بدعوته واختار عكاظاً لأنها أكبر هذه الأسواق فبدأ فيها دعوته وظل يهتف في الجموع الحاشدة قائلاً : " أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا "[2] وكان عمه أبا لهب يمشي وراءه[2] في السوق يكذبه ، ولما اشتد إيذاء قريش له كان يأتي في الأسواق القبائل فيستجير بهم كي يمنعوه من قومه حتى يؤدي رسالته .

---

[1] تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص٢٦ ، ت . كارل بروكلمان ، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين (١٩٧٩م) بيروت .

[2] راجع السيرة النبوية لابن هشام ، جـ١ ، ص٢٠٠ وما بعدها ، ت . محمد فهمي السرجاني ، مكتبة التوفيقية ، مصر .

ولاشك أن كثيراً من القبائل وزوار هذه الأسواق الثلاث فى موسم الحج خاصة كانوا قد سمعوا بهذه الدعوة الجديدة لأول مرة فى الأسواق ، ولاشك أنهم قد عادوا إلى أحيائهم وبلدانهم يحدثون قومهم بهذا الداعى الجديد وذلك الدين البازغ من مكة ، فهذه الأسواق إذن كانت البيئة الأولى بعد دار الأرقم بن أبى الأرقم التى أذاعت خبر دين الإسلام ونقلته عبر مناطق شبه الجزيرة المختلفة .

ويطول بنا المقام إذا تتبعنا الأدوار الثقافية والفكرية التى أدتها أسواق مكة وجعلتها ذات دور آخر حضارى أسهم فى أن تأخذ مكة منذ وقت باكر طابعاً عالمياً وليس محلياً على شتى المستويات خاصة المستوى العلمى بعد انتشار الإسلام ، فأصبحت (ملتقى للمسلمين من مختلف أقطارهم ، وهى بحكم دينهم الحنيف لابد لهم أن يتوجهوا إليها ويرتبطوا بها ، ولهذا فقد أصبحت مكة منذ جاء الإسلام مركزاً للثقافة الإسلامية ، يجتمع فيها العلماء الذين يفدون من أقصى الشرق والغرب ، ويتحصل من هذا هذا الالتقاء تقارب وتفاهم وتبادل رأى واستزادة علم وامتداد لروافد المعرفة وانتشار للأفكار بين مختلف الفئات الإسلامية) [1] .

ولقد مر بنا أن بعض الكُتَّاب قد وصفوا الأسواق المكية بأنها تشبه ندوة سياسية ، أو جمعية الأمم ، أو مجمعاً للغة العربية ، أو معرضاً ضخماً للتجارة الدولية ، أو مهرجاناً أدبياً حافلاً ، مر بنا ذلك كله غير أننا نحب أن نختم بتشبيه آخر وُصفت به الأسواق خاصة عكاظ ، يؤكد ما كان لها من منزلة بين شتى الأسواق العربية ، وما ميّز طابعها الرسمى غير المحلى بقول أحدهم[2] : (فسوق عكاظ ، فى جاهلية التاريخ العربى ، كانت أشبه شئ بأكاديمية كبرى فى بلاد الغرب . وكان الفائز فى عكاظ يباهى بنفسه مباهاة البطل المجلىَّ من أبطال الأغريق فى ألعابهم الأوليمبية ، بل ليس بين نائلى جائزة نوبل اليوم من يزيد فخره على فخر أولئك الفائزين فى عكاظ الجاهلية) .

وبعدما ظهر الإسلام وعم نوره أرجاء الجزيرة العربية والعالم كله ، تهيأت مكة بفضل تاريخها الذى يقوم على دعامتين : بيت الله الحرام من جهة ، والأسواق داخلها وخارجها من جهة أخرى ، تهيأت لتواصل دورها الثقافى والعلمى والحضارى ، فجاءها الناس من كل فج فى العالم طلباً للدين الجديد ينهلون من نبعه الأصيل فأصبحت مكة جامعة يؤمها العلماء فينزلونها وتحلو

---

[1] نقلاً عن كتاب الحياة العلمية والاجتماعية فى مكة فى القرنين السابع والثامن للهجرة ، ت . طرفة عبد العزيز العبيكان ، الرياض ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية

[2] تاريخ العرب ، ص١٣٧ ، د. فيليب حتى ، وإدوارد جرجى وجبرائيل جبور ، دار غندور ، ١٩٨٦م ، بيروت .

لهم الإقامة فيها دون غيرها[1] ، ويضحون من المجاوير يكرسون حياتهم للتأليف ونشر العربية وعلوم الدين لمن ينزلها من غير العرب . وكما كانت مكة منذ جاهليتها حاشدة بالأسواق والمنتديات كدار الندوة التى كانت أيضاً منتدى للقبيلة[2] يتشاورون فيها ويصدرون قراراتهم المصيرية ، أضحت بعد ذلك وعبر العصور مركزاً للعلم ، وكعبة للعلماء وصدراً يحتضن شتى المنظمات والمؤسسات والأربطة المهتمة بكل ما يتعلق بأمور المسلمين ، وبذا فهى عاصمة للثقافة العربية والإسلامية . ولولا أن الله قد أراد لها أن تكون تحت سلطان دولة قوية وحكومة رشيدة ، ماحملت هذا الطابع الثقافى والحضارى ، ولما تهيأ لها أن تقود الثقافة الإسلامية وعلوم العربية ، خاصة وأن أحداً من ملوكها وأمرائها لم يدخر وسعاً فى تعهدها ، ورعاية أهلها وحجيجها ، والحفاظ على مكانتها التى اختارها الله لها بأن تكون أم القرى بحق . وكان أقصى غايتهم من وراء ذلك أن يكونوا خدَّام حرمها وحرم المدينة المنورة .

خاتمة :

وبعد

فلقد حاولت فى هذه الورقة أن أربط بين بعض الأسواق التى كانت تُعقد حول مكة ذاتها بوصفها مقصد الحجاج إلى بيت الله الحرام انطلاقاً من حقيقة تاريخية معلومة وهى أن تلكم الأسواق – وإن كانت خارج مكة – فإنها كانت ترتبط بها ارتباطاً تاريخياً ودينياً فى آن ، إذ كان وجودها زماناً ومكاناً مرتبطاً بموسم الحج إلى البيت الحرام ، ومن ثم كان لجملة هذه الأسواق أكبر الأثر فى دعم الدور الثقافى والحضارى الذى حملته أم القرى عبر العصور .

واعتماداً على ما توفر لى من مراجع حول تاريخ هذه الأسواق فقد أمكننى حصر أهميتها بالنسبة لمكة المكرمة فى الآتى :

١- أهمية ثقافية :

تمثلت فيما أدته هذه الأسواق من دور بالغ الأثر فى تصفية اللغة العربية وتوحيد لهجاتها فى لغة فصيحة ناضجة ومستوية بفضل ما كانت تضمه هذه الأسواق من نشاط أدبى ونقدى يحظى باحترام شتى القبائل مما أضفى عليها لوناً من المشروعية والمصداقية لدى سكان

---

[1] عصر الدول والإمارات " الجزيرة العربية – العراق – إيران " ، ص٥٣ ، د. شوقى ضيف ، تاريخ الأدب العربى ٥ ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة (د . ت) .

[2] مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ، ص ١٢٢ ، د. أحمد إبراهيم الشريف ، دار الفكر العربى (د . ت) .

الجزيرة ، الأمر الذى انعكس على مكة ذاتها فأصبح لها فى نفوس حجيجها مكانة ثقافية بالإضافة إلى مكانتها الدينية .

٢- أهمية سياسية وتجارية :

حيث كانت الأسواق العامة حول مكة كعكاظ أشبه بالمحافل السياسية التى كانت تُطرح فيها الآراء وتُعلن الحروب ، كما كانت معرضاً تجارياً حافلاً ضمت صنوفاً شتى من البضائع المحلية والأجنبية ، الأمر الذى ألقى بظلاله أيضاً على مكة بوصفها المركز أو قُل السبب لوجود هذه الأسواق .

٣- أهمية فكرية :

حيث عملت هذه الأسواق وغيرها من الأسواق الداخلية فى مكة ذاتها على وحدة اللغة والصناعة الأدبية ومن ثم وحدة النظر إلى الوجود خاصة بعد مجئ دين الإسلام .

لقد كان لهذه الأبعاد الثلاثة أثر فى تمكين الدور الثقافى الذى قدره الله لمكة إذ جعلها أم القرى ومركز للثقافة الأم ، فتهيأت بعد ظهور الإسلام لتواصل عطاءها الدعوى والثقافى تأسيساً على إرادة الله باختيارها أم قرى العالم ثم اعتماداً على ما أضافته لها الأسواق من أبعاد ثقافية وسياسية واقتصادية وفكرية . وبذا كانت مكة المكرمة هى عاصمة للثقافة الإسلامية فى العالم .

ملحق لزيادة الفائدة

يضم

الأبيات التى أوردت ذكر إحدى الأسواق الثلاث

لشعراء ما قبل الإسلام والمخضرمين*

قبل الإسلام

❖ عكـاظ :

النابغة الذبيانى

١- أَرَأَيتَ يَومَ عُكاظَ حينَ لَقيتَنى تَحتَ العَجاجِ فَما شَقَقتَ غُبارى
٢- مُتَكَنِّفى جَنَبى عُكاظَ كِليهِما يَدعو بِها وِلدانُهُم عَرعارِ
٣- وَهُم وَرَدوا الجِفارَ عَلى تَميمٍ وَهُم أَصحابُ يَومِ عُكاظَ إِنّى

طريف العنبرى

أوَ كُلَّمَا وردتْ عُكاظَ قبيلَةٌ بعثُوا إلىَّ رسُولَهُمْ يتوَسَّمُ

مالك الهذلى

أَبَأنا بِيَومِ العَرجِ يَوماً بِمِثلِهِ غَداةَ عُكاظٍ بِالخليطِ المُفَرِّقِ

وهيبة بنت عبد العزى

مَتى تَردوا عُكاظَ تُوافِقوها بِأَسماعٍ مَجادعها قصارُ

❖ ذو المجاز :

أبو مزاحم الشمالى

* الأبيات الواردة فى هذا الملحق يمكن التماسها فى دواوين الشعراء المستشهد ببعض أبياتهم ، أو غيرها من مصادر الأدب والمجموعات الشعرية الأصيلة . ولم نرد أن نوثق كل بيت من هذه الأبيات وحده ، لما سيشغله التوثيق حينئذ من حيز كبير ، خاصة وأن هذه الأبيات جاءت فى ملحق البحث وليس فى صلبه ، وكان الهدف من وراء تذييله البحث مجرد إلقاء الضوء لا أكثر ، فللباحث أن يقأه للاسترشاد أو يهمله . علماً بأن بعض المصادر الأدبية التى سجلت هذه الأبيات ثابتة فى قائمة المصادر والمراجع .

أَبا جُندَبٍ وَإِذ يَقولُ خُوَيلَدٌ بِذاتِ الَمجازِ أدرَكَ القَومُ فَاذهَبِ

الحارث بن حلزة

وَاذكُرُوا حِلفَ ذى المِجازِ وَما قُ دِّمَ فيهِ العُهودُ والكُفَلاءُ

النابغة الذبيانى

باتَت ثَلاثَ لَيالٍ ثُمَّ واحِدَةٌ بِذى المِجازِ تُراعى مَنزِلاً زِيَما
كادَت تُساقِطُنى رَحلى وَمِيثَرَتى بِذى المِجازِ وَلَم تُحسِسِ بِهِ نَعَما

المخضرمون

☒ عكاظ :

أبو ذؤيب الهذلى

إِذا بُنِيَ القِبابُ عَلى عُكاظٍ وَقامَ البَيعُ وَاجتَمَع الأُلوفُ
تُواعِدُنا عُكاظَ لَنَنزِلَنهُ وَلَم تَعلَم إِذاً أَنّى خَليفُ

القتال الكلابى

وَأَتى عُكاظَ فَقالَ إِنّى مانِعٌ يا اِبن الوَحيدِ عُكاظَ فَاِذهَب فَاِقعُدِ

المخبل السعدى

لَيالِيَ سَعدٌ فى عُكاظَ يَسوقُها لَهُ كُلُّ شَرقٍ مِن عُكاظَ وَمَغرِبِ

النابغة الجعدى

تَلاَقى رَكيبٌ مِنكُمُ غَيرُ طائِلٍ إِذا جَمَعَتهُم مِن عُكاظَ الجَباجِبُ
وَلَقَد شَهِدتُ عُكاظَ قَبلَ مَحَلِّها فِيها وَكُنتُ أُعَدُّ مِنَ الفِتيانِ

حسان بن ثابت

سَأَنشُرُ إِن بَقيتُ لَهُ كَلاماً يُسَيَّرُ فى المَجامِعِ مِن عُكاظِ

خداش العامرى

ضَرَبناهُم بِبَطنِ عُكاظَ حَتّى تَوَلّوا ظالِعينَ مِنَ النَجادِ

دريد بن الصمة

تَغَيَّبتُ عَن يَومَى عُكاظَ كِلاهُما وَإِن يَكُ يَومٌ ثالِثٌ أَتَغَيَّبُ

ضرار الفهرى

غَداةَ عُكاظٍ إِذ اِستَكمَلت هَوازِنُ فى كَفِها الحاضِرِ

عامر بن الطفيل

وَيَومَ عُكاظٍ أَنتُمُ تعلَمونَهُ شَهِدنا فَأَقدَمنا بِها الحَىَّ مُقدَما

عبد الله بن الزبعرى

وَهُم يَومَ عُكاظٍ مَ نَعوا النَاسَ مِنَ الهَزَمِ

الحطيئة

سَما لِعُكاظٍ مِن بَعيدٍ وَأَهلِها بِأَلفَينِ حَتّى دُسنَهُم بِالسَنابِكِ

أمية بن الأسكر

قومى اللذو بعكاظٍ طيروا شرراً من روس قومك ضرباً بالمصاقيل

عاتكة بنت عبد المطلب

بِعكاظ يعشى الناظِرِي نَ إِذا هم لمِحوا شعاعه

كعب بن زهير

فَشَرَيتُهُ بِأَجَمَّ أَسوَدَ حالِكٍ بِعُكاظَ مَوقوفاً بِمَجمَعِها ضُحا

☒ ذو المجاز :

أبو ذؤيب الهذلى

فَرَّوحَها مِن ذى المِجازِ عَشِيَّةً يُبادِرُ أَولى السابِقاتِ إِلى الحَبلِ

النجاشى الحارثى

قَرَّ ابْن حَسَّانٍ بِذِى المِجَازِ

حسان بن ثابت

غَدا أَهلُ حِضنَى ذى المِجازِ بِسُحرَةٍ وَجارُ اِبنِ حَربٍ بِالُمحَصَّبِ ما يَغدو

عمرو بن أحمر الباهلى

إِمّا الحِبالُ وَإِمّا ذوالمِجازِ وَإِم ما فى مِنِىً سَوفَ تَلقى مِنهُمُ سبَبَا

☒ مجنة :

أبو ذؤيب الهذلى

فَوافى بِها عُسفانَ ثُمَّ أَتى بِها مَجَنَّةَ تَصفو فى القِلالِ وَلا تَغلى

المصادر والمراجع

الأرناؤوط (معروف) :

١- سيد قريش ، جـ٢ ، مطبعة فتى العرب ، دمشق ، ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م .

الأزرقى (أبو الوليد محمد بن عبد الله) :

٢- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، جـ١ ، جـ٢ ، حققه ونشره بمكة رشدى الصالح ملحس ، سنة ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

الأصفهانى (أبو الفرج على بن الحسين) :

٣- الأغانى ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٧ م .

الأصمعى (عبد الملك بن قريب بن على بن أصمع الباهلى أبو سعيد) :

٤- الأصمعيات ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت .

الأعشى (ميمون بن قيس) :

٥- الديوان – شرح وتحقيق د . محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٤م .

الأفغانى (سعيد) :

٦- أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م .

الألوسى (محمود شكرى) :

٧- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، شرحه محمد بهجة الأثرى ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، د . ت .

البخارى (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى) :

٨- الصحيح ، متن مشكول ، (حاشية السندى) ، جـ٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، د . ت .

أمين (أحمد) :

٩- عكاظ والمربد ، مجلة الرسالة ، عدد ١٣ ، القاهرة ، ١٩٣٣م .

بروكلمان (كارل) :

١٠- تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : أمين فارس ، منير البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩ م .

ثابت ، حسان ، الأنصارى :

١١- الديوان ، شرحه وعلق عليه الدكتور وليد عرفات ، جزءان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤ م .

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) :

١٢- البيان والتبيين ، مجلدان ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الخامسة ، مطبعة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٥ م .

حسين (د . طه) :

١٣- فى الأدب الجاهلى ، دار المعارف ، الطبعة العاشرة ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

حسين (محمد محمد) :

١٤- أساليب الصناعة فى شعر الخمر والأسفار بين الأعشى والجاهليين ، دار النهضة للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٧٢ .

حمور (عرفان محمد) :

١٥- سوق عكاظ ومواسم الحج ، الناشر مؤسسة الرحاب الحديثة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ٢٠٠٠م .

الحموى (أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله) :

١٦- معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧م .

الرافعى (مصطفى صادق) :

١٧- تاريخ آداب العرب ، المطبعة المصرية ، د . ت .

ابن الشجرى (ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن على بن حمزة العلوى الحسنى) :

١٨- الآمالى ، طبعة حيدر آباد ، ١٣٤٩ .

الشريف (أحمد إبراهيم) :

١٩- مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ، دار الفكر العربى ، د . ت .

الشنقيطى (أحمد) :

٢٠- شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، دار الأندلس ، بيروت ، د . ت .

الصالح (د . صبحى) :

٢١- دراسات فى فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، الطبعة التاسعة ، بيروت ، ١٩٨١م

ضيف (د . شوقى) :

٢٢- تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) الطبعة الثانية والعشرون ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت .

٢٣- تاريخ الأدب العربى ، عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، د . ت .

ابن عبد ربه (أحمد بن محمد الأندلسى) :

٢٤- العقد الفريد ، حققه أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الإبيارى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٨٢ م .

العبيكان (طرفة عبد العزيز) :

٢٥- الحياة العلمية والاجتماعية فى القرنين السابع والثامن للهجرة ، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

عزام (عبد الوهاب) :

٢٦- موقع عكاظ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٠م .

الفاسى (أبو الطيب تقى الدين محمد بن أحمد بن على الفاسى المكى المالكى) :

٢٧- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، جزءان ، حقق أصوله وعلق على حواشيه لجنة منكبار العلماء والأدباء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت .

ابن قتيبة :

٢٨- المعارف ، حققه وقدمه الدكتور ثروت عكاشة ، الطبعة السادسة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ .

متى (فيليب) : ومعه إدوارد جرجى ، جبرائيل جبور

٢٩- تاريخ العرب ، دار غندور ، بيروت ، ١٩٨٦ .

المرزوقى (أبو على أحمد بن محمد المرزوقى الأصفهانى) :

٣٠- الأزمنة والأمكنة ، طبعة دائرة المعارف ، حيدر آباد ، الهند ، ١٣٣٢هـ .

النابغة الجعدى :

٣١- الديوان ، جمع وتحقيق د . واضح الصمد ، ط١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٨ .

النابغة الذبيانى :

٣٢- الديوان ، شرح وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، تونس ، د . ت .

الهذلى (أبو ذؤيب) :

٣٣- ديوان الهذليين (القسم الأول شعر أبى ذؤيب) ، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٩٥م .

ابن هشام :

٣٤- السيرة النبوية ، تحقيق محمد فهمى السرجانى ، مكتبة التوفيقية ، القاهرة ، د . ت .